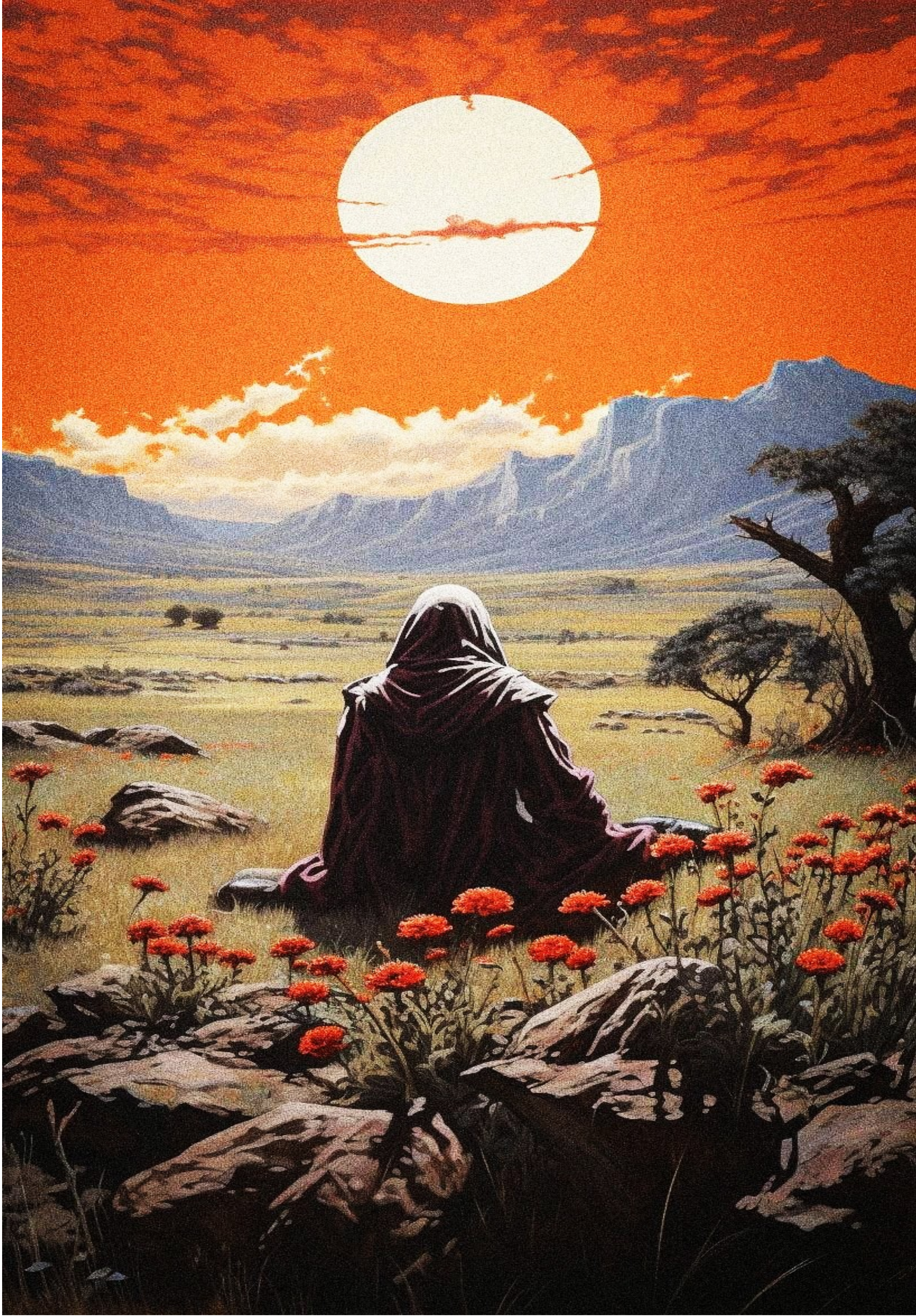
الإنسان وطلب اللذة والسعادة



بسم الله الرحمن الرحيم.

إن أحد الأصول الفطرية التي تحكم حياة جميع البشر هو طلب اللذة وطلب السعادة. وإذا دققنا قليلاً في سلوكياتنا وسلوكيات الآخرين، فسنرى أن كل عمل نقوم به وكل خيار نتخذه عند كل مفترق طرق إنما هو للوصول إلى سعادة أسمى ولذة أرقى. فكل شخص يقوم بأي عمل، سواء أولئك الذين يسعون ويجتهدون في أمور دنياهم، أو الذين يتعبون لأجل آخرتهم، أو حتى الذين يبحثون عن الراحة والكسل، فإنهم يحسبون أولاً دائماً ليروا إن كان هذا العمل الذي يقومون به هو في مصلحتهم أم ليس في مصلحتهم. إن طلب اللذة وطلب السعادة هو أحد الأصول الفطرية التي لا يمكن للإنسان أن ينفك عنها؛ وحتى عندما نحاول في موضع ما أن نخطو خطوة على خلاف سعادتنا وعلى خلاف لذتنا ومتعتنا، فلو شققنا عن باطن الأمر، لوجدنا أننا في الحقيقة في تلك اللحظة قد فكرنا قائلين: لو استطعت أن أقف بوجه شعوري بطلب اللذة فسأكون أكثر نجاحاً، وإذا استطعت أن أقاوم طلبي للسعادة الآنية، فسأصل إلى سعادة أعلى؛ إذن، يظل أساس وجذر جميع أعمالنا هو طلب السعادة وطلب اللذة. وقد تسألون: إذا كان جميع البشر مشتركين في هذا الهدف، وكلهم يبحثون في حياتهم عن نيل السعادة واللذة، فلماذا إذن يختلفون في سلوكياتهم إلى هذا الحد؟ لماذا يفعل البعض شيئاً، ويفعل الآخرون شيئاً آخر؟ والجواب هو أن جميع البشر يشتركون في أصل طلب اللذة، ولكنهم يختلفون في تشخيص ماهية تلك اللذة الحقيقية التي يجب على الإنسان أن يتبعها، وما هي السعادة الواقعية والكمال الحقيقي الذي يجب أن يصل إليه. فالاختلاف في الآراء يكمن عادة في تشخيص تلك السعادة الحقيقية وفي تذكرها. وإذا دققنا قليلاً، فإن الأعمال التي نقوم بها ترتكز على ثلاثة أصول؛ أولاً وقبل كل شيء، نحن نشخص ما هو في مصلحتنا؛ وفي هذه المرحلة تكون أفكارنا وتلك الأشياء التي تعلمناها منذ الطفولة مؤثرة جداً، وهي التي تعطينا التشخيص في نهاية المطاف. والمرحلة الثانية هي التذكر؛ ففي كثير من الأوقات نكون قد فهمنا شيئاً وأدركناه، ولكننا نكون غافلين أو مشتتي الذهن، ولأننا غافلون لا نعمل به في تلك اللحظة الحاسمة. والمرحلة الثالثة، بعد أن علمنا بالشيء وتذكرناه، هي أن نستطيع محاربة أنفسنا، وأن نسعى للمضي نحو ما يقول عقلنا إنه في مصلحتنا. وفي هذه المرحلة الثالثة، تكون معنوياتنا وحالاتنا الداخلية مؤثرة للغاية؛ على سبيل المثال، أنا أدرك أن الدراسة جيدة وفي مصلحتي، وأتذكر ذلك ولست غافلاً، ولكن لأنني معتاد على الكسل، فعندما أريد الآن أن أقرر الدراسة لا ينعقد عزمي عملياً، وكلما أردت الذهاب نحو الدراسة، ولأنني لا أملك رغبة أو ميلاً إليها، لا أفتح الكتاب في النهاية ولا أقرأ. فإذا أردت أن أكون ناجحاً بحق، يجب علي أولاً وقبل كل شيء أن أعرف الواقع جيداً، وأن يكون لدي تشخيص صحيح لِما تكمن فيه سعادتي. وثانياً، أن أحاول تذكر ما عرفته دائماً، وألا أقع في الغفلة وتشتت الذهن. وثالثاً، يجب أن أحاول جعل معنوياتي وميولي الباطنية متلائمة مع ذلك الهدف الذي أتبعه؛ فإذا أردت النجاح، يجب أن أجتنب وأبتعد عن الأخلاقيات والميول الخاطئة، وأن أرسخ الخصال الطيبة في نفسي. وإذا رأينا البشر يختلفون فيما بينهم، فليس ذلك لأن البعض يبحث عن اللذة والسعادة والبعض الآخر يبحث عن المشقة؛ كلا، بل حتى أولئك الذين يبحثون عن المشقة قد وصلوا في الحقيقة إلى هذه النتيجة وهي أن سعادتهم الواقعية تكمن في تحمل الصعاب لفترة من الزمن لكي يصلوا بعد ذلك إلى تلك السعادة الحقيقية. فاختلاف الناس يكون تارة في تشخيص مسار السعادة، وتارة أخرى في أن بعضهم يقظ والبعض الآخر غافل، وجزء منه يعود إلى أن بعضهم يمتلك معنويات سيئة بسبب أعمالهم الخاطئة السابقة أو لأسباب أخرى، فعندما يفهمون شيئاً ويكونون منتبهين له، لا يتصرفون بموجبه. فنحن

إذا أردنا الوصول إلى السعادة بحق، وإذا أردنا نيل اللذة بحق، يجب علينا قبل كل شيء أن نصلح أفكارنا؛ إذ يجب أن نحاول تكوين نظرة صحيحة للكون وللإنسان لكي نفهم ما هو دوري في هذا العالم، وما هو الشيء الأكثر لذة وجلباً للسعادة في هذه الدنيا لكي أتبعه، وإلا، فإذا شخصت سعادتي وكمالي ولذتي تشخيصاً خاطئاً، فسأكون قد خُدعت غاية الخداع؛ حيث أكون قد تعبت لفترة من الزمن وصرفت عمراً طويلاً، وعمر الإنسان ليس مجالاً للتجربة المتكررة، فكل شخص يعيش مرة واحدة، ثم نرى أن هذا العمر قد انتهى دون أن نصل إلى تلك اللذة والسعادة التي كان ينبغي لنا الوصول إليها. والنقطة المهمة في هذا البحث هي أن اللذة التي ننشدها هي اللذة الأسمى والأفضل؛ فهنالك الكثير من الأعمال أمام الإنسان التي تجلب اللذة ولكن الإنسان العاقل هو من يختار اللذة الأسمى والمتعة الأفضل. وعندما نقول إنه يجب عليك البحث عن اللذة، فهذا يعني أنه يجب عليك دراسة كل عمل، وتقييم آثاره وتبعاته الآنية والمستقبلية وحتى المستقبل البعيد، ثم تجمع كل ذلك معاً لترى كم تبلغ سعادته ومتعه وبهجته في المجموع. وعلى سبيل المثال، قد يريد المرء التدخين، والتدخين بالطبع يعطي متعة مؤقتة، ولكن إذا نظرنا نظرة بعيدة المدى، فستتبعه أنواع من الأمراض والآلام التي لا تستحق هذه اللذة المؤقتة؛ ولهذا السبب نقول إن عقل الإنسان ينهاه عن التدخين. فهناك الكثير من الأعمال التي قد تكون لذيذة في هذه الحياة الدنيا المؤقتة، ولكنها قد تكون مؤلمة في العوالم التالية وحياة ما بعد الموت؛ وعقل الإنسان يقول له لا تتبعها، بل اتبع البهجة والمتعة الأبدية الخالدة التي تفوق كل شيء. إذن، الحياة الناجحة ترتكز دائماً على أكتاف الأفكار الصحيحة، وعلى رؤية كونية صحيحة ومعرفة صحيحة بالإنسان؛ أن أعرف ماذا يجري في هذا العالم وما هو دوري فيه، لكي أشخص حينها بشكل صحيح أين تكمن سعادتي ولذتي. والأفكار التي تؤثر في الحياة وتبين لنا محاسن الأمور ومساوئها والسعادة والشقاوة، هي على قسمين: قسم من هذه الأفكار يؤثر في جميع جوانب الحياة، وبعضها الآخر يؤثر في مجال خاص بعينه. لنفترض مثلاً أنني أشرب الماء البارد دائماً مع الطعام، قد أراجع الطبيب فيقول لي إنك تفعل شيئاً خاطئاً، فشرب الماء المثلج مع الطعام وإن كان لذيذاً إلا أنه يسبب أمراضاً صعبة على المدى الطويل وهو في المحصلة يضرك؛ هنا أدرك أنه لا ينبغي لي شرب الماء البارد مع الطعام بعد الآن. وهذا وعي إيجابي؛ فمعرفتي بأن شرب الماء المثلج مع الطعام مضر هي فكرة مفيدة تساعدني على التصرف بشكل صحيح في تناول طعامي، ولكنها تساعدني في هذا المجال الخاص فحسب، ولا تفيدني في بقية جوانب الحياة. ولكن هناك بعض الأفكار التي لو تغيرت، لقلبت حياة الإنسان رأساً على عقب؛ على سبيل المثال، إذا كان هناك آخرة حقاً، وإذا كان الأمر كذلك بأن هناك عالماً آخر بعد هذه الدنيا وتستمر فيه حياة الإنسان، فحينها يجب على الإنسان أن يعيد النظر في الكثير من أعماله ويغير حسابات حياته. وإذا لم أكن أنا مجرد هذا البدن حقاً، وكان لي روح إلى جانب هذا البدن تبقى وتخلد بعد فنائه وتحلله، فيجب عليّ أن أفكر مجدداً في الكثير من قراراتي وأدرس مصير روحي بعد البدن وماذا سيحل بها. وإذا كان لهذا العالم إله، وهذا الإله قادر ومتعال وغير متناهٍ، وبوسعه فعل كل شيء ويعين من يتجه إليه، فحينها يجب عليّ الاستعانة به في الكثير من أموري، وما هو الأفضل في حياتي من التوكل والاعتماد عليه؟ سأكون مضطراً لاتخاذ قرارات جديدة في الكثير من الأمور، فالكثير من الأشياء التي كنت أقول إنها مستحيلة وغير ممكنة ولا أستطيع فعلها، سأقول عنها من الآن فصاعداً إنها ممكنة بالتوكل عليه. إن قبول وجود الله أو عدمه، وقبول وجود الروح أو عدمها، والآخرة وما إلى ذلك، هي مسائل أساسية وبنيوية، فلو صححت نظرتنا تجاه

هذه المسائل، فسنضطر إلى إعادة النظر في كثير من مفاصل حياتنا، وتكوين أفكار جديدة، وفي الحقيقة سنكتشف من خلالها اللذة الأسمى والسعادة الأرقى. إن "أصول العقائد" تعني الأفكار الأساسية، أي تلك الرؤى والأفكار الجذرية والبنيوية التي إذا تغيرت، تغيرت حياة الإنسان، ولها تأثير بالغ الأهمية في تشخيص اللذة الأسمى والسعادة الأرقى. ونحن في هذه السلسلة من المباحث نريد دراسة بعض هذه الأفكار البنيوية والعقائد الجذرية التي يمكن أن تكون مؤثرة في سعادتنا الأبدية. فالأنبياء الإلهيون لم يأتوا إلى هذا العالم ليقولوا للناس اذهبوا وعانوا وتحملوا الصعاب وألقوا بأنفسهم في المشقات؛ بل جاءوا إلى هذا العالم ليقولوا للناس اسعوا وراء اللذة الأسمى، ولكن اعلموا أن اللذات لا تقتصر على هذه اللذائذ الدنيوية فحسب، فهناك أنباء وأمور كثيرة أخرى في هذا الكون أنتم غافلون عنها، وإذا عرفتموها فستعيدون النظر تلقائياً في حياتكم، وتكفون عن القيام بالكثير من الأعمال التي كنتم تفعلونها حتى الآن. ويقول الإمام السجاد عليه السلام في دعائه ومناجاته لبارئه: "إِلَهِي مَنْ ذَا الَّذِي ذَاقَ حَلَاوَةَ مَحَبَّتِكَ فَرَامَ مِنْكَ بَدَلًا؟"؛ إلهي مَن ذا الذي ذاق عذوبة حبك فطلب غيرك بديلاً؟ "وَمَنْ ذَا الَّذِي أَنِسَ بِقُرْبِكَ فَابْتَغَى عَنْكَ حِوَلًا؟"؛ إلهي مَن ذا الذي أنس بقربك وأراد الانتقال والتحول عنك إلى مكان آخر؟ أي أنهم يريدون القول إن الشيء الأكثر لذة في الوجود هو محبة الله والأنس به، وإذا ذهبت وراء شيء آخر فقد خُدعت.